« تجارة المسلمين البحرية وظهور الاسلام فى اندونيسيا »

يوكا نجاندراساس ميتا

إن الأرخبيل الاندونيسى الذى يتكون من مئات الجزر، كان دائما على صلة وثيقة بالتجارة البحرية والتاريخ الثقافى. بالاضافة أنها منذ الأزمنة القديمة تكون حلقة اتصال مع السكان الذين يقطنون الاقطار القائمة على المناطق الساحلية الآسيوية واستراليا وبلدانا أخرى مبعثرة فى المحيط الباسيفيكى.

إلا أنه من الصعب أن نحدد تماما متى وكيف عرف الاندونيسيون فن التجارة على طول الطريق البحرية. لكن علماء كثيرين أجمعوا على رأى واحد. وذلك منذ ترك أسلاف الاندونيسيين وطنهم من أقصى الهند فى نحو سنة ٢٠٠٠ ـ سنة ١٥٠٠ ق ـ م. كان من الممكن أن تكون الخطوط الاولية للملاحة البحرية قد تأسست بين سكان مجموعة الجزر الاندونيسية وكل من جزيرة مدغشقر ـ فرموزا ـ الجزر الشرقية ـ ونيوزيلنده.

وكما نعرف فان كثيراً من التجار الهنود قد زاروا اندونيسيا فى بداية عصرنا التاريخى. ولهذا أصبحت المخالطات أو العلاقات بين الأمتين أوضح من قبل. وذكر العالم الهولندى جى. سى. فان لور أن علاقات الملاحة بين كلا القطرين أمكن وقوعها قبل الوصول إلى المرافئ الصينية من جنوب الصين. ودلت البحوث لما قبل التاريخ أن التجار الهنود الذين جاءوا الى اندونيسيا فى بداية فترتنا التاريخية كانوا من الجنوب الغربى للهند. ثم أدخلوا ثقافتهم إلى الاندونيسيين، وتكونت منذ ذلك الوقت الأوساط الاندونيسية ـ الهندوسية وعالك تحمل ثقافتها مبادئ الثقافة الهندية.

وأصبحت الملاحة والعلاقات التجارية بعد ذلك الوقت، ومثلها السياسة والثقافة أكثر وضوحاً. ولم تقتصر العلاقات هذه مع الهنود فحسب، بل مع الصينيين ويبرهن على ذلك تواريخ السلالات الحاكمة الصينية ووجود نقودهم وخزفهم فى جاوا وسومطرا.

وفى خلال حكم سلالة الساسانية أمكن التقدير أن بعض سكان آسيا كالفرس مثلا، قد شرعوا بركوب البحر الى الاقطار الشرقية - إلى كانتون - وتعد هذه أقصى رحلة بحرية قام بها سكان غرب آسيا إلى الاقطار الشرقية قبل الملاحين الاوروبيين فى القرن السادس عشر.

ويعزى انتعاش الملاحة غالبا بين الاقسام الشرقية والغربية لآسيا فى القرن السابع إلى ظهور دولتين قويتين «أما جاه كالنيات» فى الغرب (٦٦٠ - ٧٤٩ م.) وسلالة «تانج» الممالكة فى الشرق (٦١٨ - ٩٠٧ م.) وبناء على التواريخ الصينية استوطن العرب فى «كانتون» بين سنة ٦١٨ وسنة ٦٢٦ م. ولدينا دليل واضح مأخوذ من سجل «آى تسيغ» يبين لنا طريق الملاحة فى القرن السابع.

وفى سنة ٦٧١ أبحر «اى تسنغ» من كانتون على ظهر سفينة «بوستى» وحط فى بهوجا بالمبانج - مهد البوذية - على طريق الهند. وأقام فى عاصمة «كرويجايا» نحو ستة أشهر لدراسة القواعد السنسكريتية. ثم زار الملايو فى مدة شهرين وبعدها واصل رحلته الى الهند. واستناداً على تسجيلات «آى - تسنغ» نستطيع التقدير أن عاصمة «كرويجايا» كانت فى القرن السابع محطاً للتجارة والنشاطات السياسية والثقافية فى القسم الجنوبى الشرقى من آسيا. ويمكن تركيز انتباهنا على النقوش التى وجدت

بجوار (Palimbang) ، ميراجن (Merajun) فى دجامبى (Dajambi) العليا كوتا كاپور (Kotha Kapur) فى جزيرة بانجكا (Bangka) التى بعضها يحمل كلمات تشير الى ما تعنيه الاصطلاحات الفنية مثل پوهاوان (كاپتن سفينة) ووانباجا (تاجر). واذا فحصنا ثانية كلمة «پوسى» المشار إليها أعلى فقد استعملت للدلالة على الفرس. وعلى هذا تؤكد لنا الأخبار عن وجود تاجر هندى على ظهر سفينة «پوسى» وكان على مشهد من غرق ست وثلاثين سفينة فى رحلتهم.

وفى نفس القرن قيل بأن سفارات عدة من فارس، الهند، كروجايا، هولنج، جاوه كمبوديا وشاميا كانت تمثل أمام البلاط الصينى. وعرفت هذه الحقيقة عن طريق الفرحان الامبراطورى المؤرخ سنة ٦٩٥ ولو أن هذا الخبر يرجع الى الوقت الذى ساد فيه الاسلام الاقطار العربية وفارس لاستطعنا التقدير بأنه ليس من المستحيل أنه كان من بين تجار البحر أو السفارات من المسلمين. ولهذا يمكن القول من أن بذور الثقافة الاسلامية قد انتشرت بين سكان المناطق الساحلية من الاقسام الشرقية من آسيا بين منتصف ونهاية القرن السابع. وكان التجار المسلمون ومثلهم الهندوس يشرون تعاليمهم وثقافتهم للمواطنين فى البلاد التى يحلون فيها أو يزورونها. كما كان التزاوج أمراً عاديا لوجود الاضرحة فى المناطق الساحلية من شمال سومطرا المؤرخة منذ بداية القرن الثالث والرابع عشر. كما بين الكثير من المؤرخين بأن التزاوج كان شيئا عاديا للتجار الذين كانوا يجوبون اندونيسيا واستناداً على الضريح الذى وجد فى أحد الامكنة من شمال سومطرا والتشابه فى تصميمه مع ضريح «كازورينسى» فى «كامبى» نعرف أن المسلمين جاءوا من جنوب الهند كذلك.

وتدل كتابات الضريح الذى عثر عليه فى شمال سومطرا أنه يرجع الى القرن الثالث عشر. ومع أن البروفسور محمد حسين ناينار قد بين فى نظريته من أن بداية التبشير بالديانة الاسلامية فى شمال سومطرا قد ابتدأت منذ فجر الاسلام، فيمكن بدايتها خلال حياة النبى كما حدث فى جنوب الهند وخاصة الجزء الشمالى الشرقى على سواحل مضيق ملقا. إلا أنه اعتمد فى فكرته هذه على المصادر العربية واليونانية، والتى اشارت مراراً إلى «دامى» واسمها الآن «لامنو» القائمة على بعد ٦٠ ميلا من كوتردجا عاصمة «أتشين» وهذه أول مكان عرف للتجار المسلمين.

واذا أشارت «پوسى» و «طاشيه» الموجودة فى المراجع الصينية، الى الفرس والعرب الذين اعتنقوا الدين الاسلامى، فانه ليس بمستحيل أنهم أسسوا مراكز واسعة لسكنهم فى جزيرة هاينان سنة ٧٤٨ م. كما زار تلك الجزيرة فى نفس الوقت اصحاب السفن من الهنود وأهل الملايا هذين توقفوا عن الابحار فى مرفأ «كانتون» ثم كثر عددهم حتى استطاعوا فى سنة ٦٥٨ من مساندة العصاة ضد الحكومة الصينية فى «كوانجشو» (كانتون). ثم غادروا بحراً بعد أن احرقوا خلفهم الميناء. وكان لضعف القوة العسكرية فى كانتون سببا فى تلك الحادثة المرعبة، حيث أرسل أكثر من نصفهم الى الاقليم الشمالى (من كانتون) لاخضاع العصاة الذين ثاروا بقيادة «آن - لو - شاه» والذى ينتمى إلى سلالة تركية.

ثم أغلق ذلك الميناء سنوات عدة فى وجه التجار ومسافرى البحر الأجانب، وظل مغلقا الى أن فتحت أبوابه سنة ٧٩٢ م.

كتب التجار المسلمون مذكرات عن ملاحتهم عبر البحار بين الخليج العربى والصين، مساقة من مصادرها الأولية.

فذكر المروزى (١١٢٠) عن هروب طائفة الشيعة من التجار إلى الصين سنة ٧٤٩ ليسلموا من جيش لبنى عباس الذى هاجم موطنهم خراسان.

ودون «أبو عبيدة» ـ «كاتب طائفة العبادية ـ أن طائفته زارت الصين فى منتصف القرن الثامن. وبقيام خلافة بنى العباس ونقل العاصمة من دمشق الى بغداد تغيرت المواصلات تغيراً ملموساً. وأشار اليعقوبى مؤلف كتاب «البلدان» عن النقل السريع فى المرافئ المحيطة بدجلة والفرات. وقيل أن «المنصور» كان مرفأ عاجا بالسفن التى تأتيه من الاقطار المجاورة.

ثم كتب الملاح «بزرگ» بن شهريار مؤلف كتاب «عجائب الهند» تسجيلات عن تجارة ما وراء البحار بين بلاد فارس والصين حوالى القرن الثامن ـ والتسجيل هذا طبقا للمصادر الصينية من «كيانان».

وأما التاجر «ابن خرداذبه» (٨٤٤-٨٤٨) الذى كان مولعا بالجغرافيا فقد زودنا بمعلومات أوسع، فذكر عن مملكة «ذبق» مع حاكمها مهاراجا التى كان الكافور يصدر منها ومن مناطق أخرى مثل كلال، وسبج وسلاهيت ودامنى. وهذا الاسم ينسب الى كرويجايا (زبج) الذى امتد نفوذه على كداه (كلاه) ومضيق ملكا (سلاهيت).

وأصبح النفوذ السياسى هذا واضحا بمدون ليغور سنة ٧٧٥ ولم يذكر «بن خرداذبه» عن استيطان المسلمين فى هذه المناطق. ومن الواضح أن التجار المسلمين كانوا سابقا يرغبون فى «كريكيجايا»، وقد ظل مضيق ملكا فى القرن العاشر تحت سيطرة «كريكيجايا»، وذكر كثيراً عنه بوصفه طريق التجارة المهم للتجار العرب والكتاب كابن الفقيه

(٩٠٢) ، ابن روسته (٩٠٣) ، ابن زيد ، ابن سليمان المسعودى (٩٤٧) .
وربما أقام بعضهم فى الساحل الشمالى من جاوه . وللبرهنة على ذلك
وجود قبر فى قرية لهران (جيرسك) قرب سربايا ، حفر عليه بالخط
الكوفى اسم فاطمة بنت يمون بن هبات الله الذى مات سنة ١٠٨٢ ويعتقد
أنه أقدم بقايا لآثار المسلمين القديمة فى اندونيسيا . وبجانب « اران »
يوجد لحد الآن أثر لطريق التجار الى جاوا ويمكن تتبعها من وجود حجر
ضريح فى « شامبا » مؤرخ من سنة ١٠٦٩ .

ومع أننا أشرنا أعلى ، أن قدوم المسلمين الى سومطرا ابتدأ منذ
القرن السابع ، فهناك شواهد قاطعة وجدت على بلاطة ضريح وجد
قرب لوكسما و (شمالى سومطرا) ترجع الى القرن الثالث عشر . واستناداً
على أخبار كتاب أجانب مثل ماركوپولو وابن بطوطه ، أو إلى الانتاج
الادبى مثل « سجراه ملايا » (تاريخ الملايا) وحكايات راجا راجاياساى
إلخ التى تعد مصدراً هاما فى البحث التاريخى ، نستطيع أن نثبت من أن
مملكة اسلامية تحمل اسم « سامودرا پاساى » قد تأسست على الساحل
الشرقى من شمالى سومطرا ، فى المكان الذى تقع فيه بلاطة الضريح وتتشابه
هذه الحجارة فى تصميمها مع البعض الآخر من كامبى «كوجرات» (Gujrat) .
ومن هنا نستنتج أن الحجارة من لوكسيما قد صممت فى المكان الثانى
(كامبى) . وفى مراحل التبشير الاسلامى فى شمالى سومطرا يمكن تتبعها إلى
(Gujrat) المكان الذى نقلت منه تعاليمها الدينية وتقاليد الزواج . . . . الخ .
وفعل مثلهم الهندوس والبوذيون فى بداية الفترة التاريخية المسيحية . وكان
لكامبى أهمية عظمى لطرق التجارة بين الشرق والغرب فى القرن الثالث

والخامس عشر . ولتجارهم فعلا فروع فى المراكز التجارية لشمال سومطرا وملكا .

ثم أصبحت ملكا مرفأ قديما للمسلمين الدين وسعوا حلقتهم التجارية إلى الساحل الشمالى لجاوا حيث يتم التبادل الذى يعقد فى مدن توبان، جيرسك وجاپارا . وتعد المرافق هذه ثانوية لمملكة ماجاپاهيت ، إلا أنه كان يسمح للتجار المسلمين بدخولها والاقامة فى العاصمة أو حولها وأما زواجهم من الفتيات المواطنات وكان يتم علنياً .

وفى وسط محيط « ترالايا » و « ترولان » وجد حجر لضريح منقوش عليه التقويم التاريخى الغربى واليابانى القديم ومؤرخ من القرن الرابع عشر - السابع عشر ، ويمكن أن يعطينا دليلا عن المشاركة العملية بين ملوك ماجاپاهت والتجار المسلمين . وكانوا تبعا للتقاليد يأخذون المسلمين الى الاوساط العائلية حتى الاشراف منهم .

ومن الواضح أن مرحلة التبشير الاسلامية كانت منذ البداية دعوة سلمية . وقد مدح « موهون » المستوطنين المسلمين فى كتابه - « جنج - باى - شنج آن » المقيمين على الساحل الشمالى لشرق جاوا سنة ١٤١٦ .

ونستطيع أن نؤكد جازمين أن التجار جاءوا من شمال سومطرة أو كجرات (Gujrat) بالنظر لما تدل عليه بلاطة قبر من أصل ضريح مالك ابراهيم فى جيرسك مؤرخة سنة ١٤١٩ حيث تشير إلى التشابه القريب للبعض الآخر من « سامودرا پادسى » .

وعن طريق الملاحة البحرية وصلت الاقاليم الشرقية لاندونيسيا بعد جاوا . وفى حوالى القرن الخامس والسادس عشر اعترف «الملكاس» بالإسلام .